أعوام الجوع

عز الدين التازى :

والليل متقلب حزين ، فى منزل خرب ليس بالصيفى ولا بالشتوى ، تسكنه روحان وجثتان مفصولتان ، تلامسهما الظلمة واربعة جدران وسقف واطىء ، والتلامس دفء لا يحسه الجسدان ، الحس واحد والهروب واضح فى المجال الظلامى المحدود بالسقف والجدران . لا نثرثر ولا نعرف كيف نتحدث . لا نطلب . الوجود يتفسخ خارج الجسدين المقشرين النحيلين حتى الضوء مسافة منعدمة بين أنا وهى ، وبين الفجوة التى تعصرنا فى مجال ميت ساكن . لا احد يتعرف ، ورائحة الزمن ثقيلة ، والايدى تحاول سحب اكفان الجوع عن الجسدين ولا تستطيع . الذهول خامد فى الرأس ، والموت شىء متوقع .

يدور المنزل القديم ويسقط فى مسافة من الغربة الصحراوية لها مذاق العطش ، فى هدب العين منفية الى خرائب الغبار والتعفن . المسافة كالطاحونة ، تدور على كتلة متلاصقة من العظام اليابسة المقشرة المصفوعة بشواظ الجحيم ، فى بيت تتلامس جدرانه ، والليل متقلب حزين.

كتلة متلاصقة اخرى تتحرك فى الدرب العتيق ، نعش واربعة اكتاف تتهرأ تحت الثقل ، ودفقات من المطر المتتابع المسترسل . يقولون انه مطر الرحمة . الجثة تهتز . الاكتاف تتآى بالثقل . لا احد يسير خلف النعش، المطر اخلى الطريق من العابرين ، ورياح الموت عاصفة ، يسير الموكب هادئا ، ولا صوت الا رياح الموت تثقب الفضاء ، وتخز الجلد ، وتترك فى عيون حاملى النعش حزنا وذكرى ، وهل يتيه الانسان فى اكثر من الريح الثاقبة ، الفاصلة بين القلب والقلب ؟

يومها كنا نعيش ، ونأكل من قلوبنا خبزا وزيتونا ، نمد على مائدة الفقر فواكه من جسدينا ، ونشعل من عيوننا اضواء النجوم ، وآفاق من ذاتينا نحلق فيها ونغرق فى افيائها ، ولم نكن ندرى ان اليباب هو اشتعال الرأس شيبا وانه مدينة القبور . نأكل من قلوبنا خبزا وزيتونا ، نرى حقولا فسيحة من القمح والخضرة كانت لنا ملهى وهى مسروقة السنابل ، ننظر

الى عيون بعضنا ونقرر الصمت ، لان الظلام خلفنا والسجون الارضية التى بنيت جدرانها بعظام المصلوبين ، ولكننا نبصق الحقد وينطفىء ضوء الدجم فى عيوننـــا .

وقفنا عند ابواب الريح ، يثقب الاسماع خرق الريح ، قالوا ريـــاح اخرى وليت الريح كانت تجرى بما تشتهى السفن . وقلنا هى الريح بين ايدينا خناجر مفلولة هل نترك أعناق الكلاب نافرة والعيون على تحديها ؟ وتبقى اريح مكسورة ، لا ترفع ولا تخفض ، تجول فى الساحة نكسر كل قلب مهزوم ، تزرع الاشواك فى الاجساد توقظ أحـــزانا طفوليـــة وتنكس الرؤوس . وشوارع المدينة دم . دماء الشوق والموت والاحداق دم . دم هو الانسان يموت صبرا ، دم الانسان شوق وحقد ، وجـــاء بالنبوءة الف وما صدقت نبوءة واحد من ذوى السحنات الباردة القبرية ، وفى رتابة الزمن الماضى والاتى لا يصدق الفعل السريع ولا يكون الناس مـــن الناس ونبقى ضرسا مخلوعا وعيونا مسمولة واشلاء منشورة فى وجه الريح او نعشا يتحـــرك .

حفرة ساخنة منهوشة تنتظر ، والطريق اليها أزقة ميتة قديمة ، توارت عنها شمس النهار . الاكتاف الاربعة تميل ويهصرها الثقل . سكون ظلامى وتطلع ، وخطوات بطيئة تنسرب نحو المقبرة . لا ظـــل للنعش المتحرك بين المطر والغمام المغموس فى وجه السماء . المطر يتدفق فى عروق الارض ، يسمونه مطر الرحمة ، والمنعطفات تـــدور بالنعش ولا شك ستلقيه خارج اللعنة القائمة وخارج الريح والحناجر المثلومة .

وقالت يدى سكرية ، فكلها ولا تنتظر مائدة من السماء ولا أخرى من الارض ، فقلت وما تاكلين ؟ لاحت غيمة دافئة من العين وكان وراءها ذعر الجوع والطاعون . أفتش فى جيبى عن قطعة من النحـــاس او الـــزنك ، وكانت يسد السكر ممدودة ، فلم اجد نقودا او ثقوبا ، وجـــربت ان اصير طفلا فى الخامسة يغتذى حلوى السكر . أمتص وخوفى ولسانى جمرة نار ، وطعم اليد الحلو شفاء وسقيا بالبرد والسكينة . وقالت أنا اطعمك مـــن جوع فقلت وما تطعمين ؟ ويد من حديد على خزائن القمح والزيتون واللحم المقدد والفواكه المجففة ، وصناديق التمر والزبيب وبراميل الخمور . قالت لماذا المجاعة قلت هم ايدى الحديد سارقوا الحقول والضيعات من عبيد الارض ذوو الوجوه المسكونة بالحقد المنفوخة بفيض الخير والامان على اعوام من النهب . وتضاربت لمع البروق فى عينيها وكانت سكرا فى دمى وحرارة تذوب مع المص الملهوف ولا يبقى سوى عظم نحيل يشد الاطراف بالاطراف . مصى شديد وانتهت حلوى السكر بالنخاع القصبى وما شبعت. قالت تأكل التفاح والرمان ؟ قلت هى النهاية ، جوعى أن آكلك وجوعك موت فما تأكلين ؟ اتسعت عيونها وغاض الدمع فى الاحـــداق ، وانفتحت

سراديب الدهشة فى عينى ، على الخرائب المتهاوية والذعر المسلك فى الاقبية الرطبة التى لا يسمع فيها سوى صدى صوت السلاسل ، ورائحتها الموت والجيفة ، وعلى الحيطان عظام مدقوقة تتوغل فى الشروخ كأنها سيوف أثرية ، والجماجم المسلوخة الجلد والشعر تلمع مع هبة الضوء ، وفى الاقباء الرطبة تنور يحمى من وقود أجساد هى التفاح والرمان والسكر . قالت : ما ترى ؟ قلت لا شىء . وعامت عينها بالدمع ولا ادرى ما كانت تراه .

متاهة الوصول تنتهى بمدينة القبور ، والمساء متعب يحنى راسه نحو الافق الغيوم . لا وصول الا بعد التيه فى ازقة ظلامية متسربدة يخشاها الاطفال ويضحك منها الشيوخ ويحاول الشبان قنص اللذة فيها ، اما النعش والاكتاف الاربعة ــ الكتلة المتلاحقة ، فمساؤها متعب وحمرة دموية تفصل بين التراب والارض والرائحة .

فى عينيها ضفاف اخرى بعيدة ، ونجوم تتقافز وتضىء كل الارض ، وبحر من الملح لا يعطى سوى الاحلام والغربة . وكانت الضفاف الاخرى فى منفى الجزر الوحشية ، لا احد يأكل فيها من اعوام النهب ، وسيقان نباتية تعطى ثمارها الا احد . الانسان غائب . ها نحن . والشبع له مذاق خاص ، هو النبات الاخضر الطازج . تضاحك فى عينيها فرح الحياة وهى تجرى نحو النبع . قالت وهل هذا طعام الادميين ؟ وكنت اسمع ريحا فى دواخلى ما تزال تقصف ، واشتم رائحة السجون فى جلدى ، وكانت تبكى الغربة فى العين وفى الراس ، كنا نسبح فى فضاء سديمى ، والرياح تظللنا ، نتنفس هوادها الثقيل الدافىء البارد الحار العليل القائظ ، ونحن لا ندرى هل كانت هاته الضفاف كشفا ام خطيئة ، حلالا ام حراما .

عند ما بدأت ابحث عن ثورة ، لم اجد حولى فى هاته الضفاف انسانا يتزاحم ويتكاثف ، تطلعت الى الافق البعيد ابحث عن وجوه كالحة وايد تهوى بالفأس ، وعيون تغرق فى الدم لا ترى الحقول المسروقة المسقية بالدم المراق . قلت فى خاطرى : لا ثورة الا مع الانسان .

كانت تهيم فى خضرة الحشائش وهى تدعونى :

ــ تعال .

ــ هل انت حواء ؟

ــ تعال . نحن نسكن الارض لاول مرة .

ــ وهل اختار ذلك ؟

الصمت مسافة من الغربة تقطعنا . رعشات من الداخل تعصر القلب . قالت :

ــ اقترب .

وكانت ثورتى ان ارفض اللعبة ، لكى لا يكون الانسان الجائع ،

ولكى لا يقتتل قابيل وهابيل على كسرة خبز ، ولكى لا يصيح احد منى استعبدتم الناس ، ولكى لا يكون باب المحروق من ابواب فاس ، والمحروق انسان ، ولكى لا يكون الانسان ثمارا ناضجة يهواها السيف ، ولكى لا تكون وجوه من البشر وفيض الامان فى اعوام النهب . لن اقترب ، لكى لا تكون الدوامة التى تتمخض عن الجوع فى البطن . والسيف على الرقبة .

اتصل الجلد بالجلد ، ميتا متهرئا رقيقا ، وتحللت العروق المنتفخة بالدم الجامد ، الى صفرة سائلة متلزجة ، وهكذا فبالدم كنا ، ينتصب عروقا نابضة فاعلة ، حتى فى عروق العين التى تلون الحقول المسروقة باللون الاحمر . وكيف ؟ لا نعلم . ومتى ؟ فى التاريخ المتوالد من نفسه ، وفى الوجود الضيق الذى يسكن فى جوف خرافة تتناسل من ذاتها ولا يبقى فيها من الحقيقة الا لون الحقول التى يمتطيها الدم الاحمر خارجا من عيون عبيد الارض . وكنا نرفض ان نأكل من لحم الانسان حتى تكون لنا الحياة القصيرة . وكان النعش يمشى فى زقاق عفن قديم ملتو تغسله دفقات المطر ، وعلى جانبيه غابات وحشية وشطآن يعتصرها الموج ، وكان اثنان فى النعش الاول آكل والثانى مأكول وكلاهما ميت .

محمد عز الدين التازى